خطبة نبي اللّه يحيى بن زكريا -عليهما السلام- في بيت المقدس

دراسة بلاغية

إعداد:

د/حامد محمود حامد عوض

مدرس البلاغة والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بدسوق

جامعة الأزهر

(العدد الخامس والثلاثون)

(الإصدار الأول)

(١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م)

خطبة نبي اللّه يحيى بن زكريا -عليهما السلام- في بيت المقدس دراسة بلاغية

حامد محمود حامد عوض
قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية، دسوق، جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية
البريد الالكتروني: Dr.HamedAwad.team@azhar.edu.eg

ملخص البحث: يهدف البحث للكشف عن بلاغة خطبة مباركة رواها خاتم الأنبياء والمرسلين _ﷺ_ لأصحابه عن كلمات أوحى الله _تعالى_ بها لنبي كريم وهو يحيى بن زكريا _عليهما السلام_ ولا ريب أن هذه البلاغة العالية في هذه الخطبة قد خرجت من مشكاة بلاغة رسولنا الكريم _ﷺ_، الذي أوتي جوامع الكلم، فالمعنى وإن كان قد خرج من نبي الله يحيى _عليه السلام_ إلا أن الألفاظ والأساليب هي معين النبوة العذب الصافي، الذي عبر عن هذه المعاني الجليلة بلسان عربي مبين، هذه الخطبة تضمنت كلمات خمس جاءت عن طريق ضرب الأمثال وتضمنت أربع صور تشبيهية في قمة الجمال الفني، حيث صورت هذه التشبيهات فضل مجموعة من أصول العبادات والطاعات وصورتها في صور بيانية رائعة، وهذه الطريقة البيانية لها منزلة عالية جدا في البلاغة، فأردت أن أشرف قلمي بدراسة هذه الخطبة الجليلة دراسة بلاغية عنوانها: (خطبة نبي الله يحيى بن زكريا _عليهما السلام_ دراسة بلاغية)، راجيا من الله تعالى أن تكون هذه الكلمات تنويها طيبا على شرف هذه الخطبة ودعوة للمؤمنين أن يمتثلوا لهذه التوجيهات، وإرشادا للباحثين أن ينهلوا من فيض هذه الكنوز الطيبة، فأهمية هذا البحث ترجع إلى أنَّ الدراسةَ مرتبطةٌ بكلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذي هو أفقُ رحب لطلاب علم البلاغة، ومطلبٌ مهمٌ للباحثينَ للغوص فيهِ ، ومعرفةَ أسرارِه البلاغية العظيمة.

الكلمات المفتاحية: دراسة بلاغية، بحث بلاغي، خطبة، نبي الله، يحيى بن زكريا، بيت المقدس.

The sermon of the Prophet of God Yahya bin Zakaria - peace be upon them - in Jerusalem, a rhetorical study

Hamed Mahmoud Hamed Awad
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies, Desouk, Al-Azhar University, Arab Republic of Egypt
Email: Dr.HamedAwad.team@azhar.edu.eg

Abstract: The research aims to reveal the eloquence of a blessed sermon narrated by the Seal of the Prophets and Messengers - may God bless him and grant him peace - to his companions on the words that God - the Most High - revealed to a noble Prophet, Yahya bin Zakaria - peace be upon them - and there is no doubt that this high eloquence in this sermon came out of the niche of the eloquence of our Holy Messenger - may God bless him and grant him peace - Who was given all the words, so the meaning, although it came from the Prophet of God Yahya _ peace be upon him, but the words and methods are the specific of the pure, sweet prophethood, who expressed these great meanings in a clear Arabic tongue. An analogy at the top of artistic beauty, where these similes portrayed the virtue of a group of the origins of worship and obedience and its image in wonderful graphic images, and this graphic method has a very high status in rhetoric, so I wanted to supervise my pen by studying this great sermon a rhetorical study entitled: (The sermon of the Prophet of God Yahya bin Zakaria, peace be upon them, is a rhetorical study, hoping that God Almighty will make these words a good note on the honor of this sermon and an invitation to the believers to comply with these directives, and as a guide for researchers to draw from the abundance of these good treasures, the importance of this The research is due to the fact that the study is related to the words of the prophets, peace and blessings be upon them, which is a broad horizon for students of rhetoric, and an important requirement for researchers to delve into it, and to know its great rhetorical secrets.

Keywords: Rhetorical study, Rhetorical research, Sermon, Prophet of God, Yahya bin Zakaria, Jerusalem.

﴿نص الخطبة﴾

روى الإمام الترمذي في سننه قال: (حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ قَالَ: حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبَانُ بْنُ يَزِيدَ قَالَ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ سَلَّامٍ، أَنَّ أَبَا سَلَّامٍ، حَدَّثَهُ أَنَّ الحَارِثَ الأَشْعَرِيَّ، حَدَّثَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: " إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا وَيَأْمُرَ بني إسرائيل أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنَّهُ كَادَ أَنْ يُبْطِئَ بِهَا، فَقَالَ عِيسَى: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ لِتَعْمَلَ بِهَا وَتَأْمُرَ بني إسرائيل أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، فَإِمَّا أَنْ تَأْمُرَهُمْ، وَإِمَّا أَنَا آمُرُهُمْ، فَقَالَ يَحْيَى: أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي بِهَا أَنْ يُخْسَفَ بِي أَوْ أُعَذَّبَ، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي بَيْتِ المَقْدِسِ، فَامْتَلَأَ المَسْجِدُ وَقَعَدُوا عَلَى الشُّرَفِ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ، وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ: أَوَّلُهُنَّ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَإِنَّ مَثَلَ مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرِقٍ، فَقَالَ: هَذِهِ دَارِي وَهَذَا عَمَلِي فَاعْمَلْ وَأَدِّ إِلَيَّ، فَكَانَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟ وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَكُمْ بِالصَّلَاةِ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا، فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلَاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، وَآمُرُكُمْ بِالصِّيَامِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ فِي عِصَابَةٍ مَعَهُ صُرَّةٌ فِيهَا مِسْكٌ، فَكُلُّهُمْ يَعْجَبُ أَوْ يُعْجِبُهُ رِيحُهَا، وَإِنَّ رِيحَ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ، وَآمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ العَدُوُّ، فَأَوْثَقُوا يَدَهُ إِلَى عُنُقِهِ وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ، فَقَالَ: أَنَا أَفْدِيهِ مِنْكُمْ بِالقَلِيلِ وَالكَثِيرِ، فَفَدَى نَفْسَهُ مِنْهُمْ، وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ العَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ العَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ "، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ، السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ وَالجِهَادُ وَالهِجْرَةُ وَالجَمَاعَةُ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ، وَمَنْ ادَّعَى دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ؟ قَالَ: «وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ، فَادْعُوا بِدَعْوَى اللَّهِ الَّذِي سَمَّاكُمُ المُسْلِمِينَ المُؤْمِنِينَ، عِبَادَ اللَّهِ»)[1].

---

(١) سنن الترمذي، حديث: (٢٨٦٣)، (ج٥/ ص١٤٨)، ت: الشيخ أحمد شاكر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م، ورواه الأئمة: أحمد(١٧١٧٠)، والطَّبَرَانِيُّ (٣٤٢٧)، والحاكم(١٥٣٤)، وابن خزيمة (١٨٩٥)، وغيرهم بسند صحيح.

مقدمة

الحمد لله الذي أرسل رسله مبشرين ومنذرين، فبلغوا عن ربهم وأرشدوا الناس إلى الطريق القويم، والصلاة والسلام علي النبيّ العربيّ الكريم، سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ أفصح العرب والعجم وخاتم الأنبياء والمرسلين، آتاه ربه جوامع الكلم، فكان خير من نطق بلغة القرآن الكريم، ووعظ بها وأرشد، وذكر من أخبار إخوانه من الأنبياء السابقين، وارض اللّهم عن الأهل الأطهار، والصحْب الأخيار، والتابعين الأبرار، وكلِّ من والاهم بإحسان إلى يومٍ يرث الله- تعالى- فيه الأرض وما عليها، وبعد.

فلقد أرسل الله _عز وجل_ رسله لهداية الخلق، وحباهم بملكات البيان ما يمكنهم من إبلاغ دعوتهم لأقوامهم، وهدايتهم واستنقاذهم من الظلمات إلى النـــور، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤﴾ [سورة إبراهيم:٤].

ومن هذه الكوكبة النيرة من الأنبياء والمرسلين نبي الله يحيى بن زكريا _عليهما السلام_ الذي زكاه ربه _تبارك وتعالى_ وناداه قائلا: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾ [سورة مريم:١٢-١٦]. وقوله تعالى: {بِقُوَّةٍ} أي: "بجد واجتهاد، وتفهم لمعناه على الوجه الصحيح، وتطبيق ما اشتمل عليه من أحكام وآداب، فإن بركة العلم في العمل به"[1] . وسبحان الله!! إن ما أمر به يحيى عليه السلام وهو صبي صغير نراه معنا في هذا الخطبة التي هي من درر النصائح والوصايا، حينما أمره الله _ﷻ_ بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر الناس أن يعملوا بهن فكاد أن يبطأ بها وتأخر في إبلاغها حتى أتاه عيسى بن مريم _عليه السلام_؛

(١) التفسير الوسيط لفضيلة الإمام الأستاذ الدكتور سيد طنطاوي _رحمه الله- (١ / ٢٧٦٧)، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة: الأولى،١٩٩٨م.

وذلك لأن أمر الله _ﷻ_ له بتفهم المعاني التي يؤمر بها أولا، ثم العمل بها ثانيا جعله يكاد أن يبطئ بتبليغ هذه الكلمات المباركة التي حفها الشرف والفضل من جميع الوجوه؛ فهي كلمات مباركة، قالها نبي مبارك في مكان مبارك، قدسه الله _تعالى_ وشرفه وبارك حوله؛ إنه المسجد الأقصى المبارك، الذي قيلت فيه هذه الخطبة حينما خطبها نبي الله يحيى لبني إسرائيل بتوجيه من رب العالمين _تبارك وتعالى_.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أَيْ: إِدْرَاكَ مَا فِيهِ وَالْعَمَلَ بِهِ فِي حَالِ كَوْنِهِ صَبِيًّا، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ _رَحِمَهُ اللَّهُ_ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: "أَيِ: الْفَهْمَ وَالْعِلْمَ وَالْجِدَّ وَالْعَزْمَ، وَالْإِقْبَالَ عَلَى الْخَيْرِ وَالْإِكْبَابَ عَلَيْهِ، وَالِاجْتِهَادَ فِيهِ وَهُوَ صَغِيرٌ حَدَثٌ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ قَالَ مَعْمَرٌ: قَالَ الصِّبْيَانُ لِيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا: اذْهَبْ بِنَا نَلْعَبُ، فَقَالَ: مَا لِلَّعِبِ خُلِقْنَا فَلِهَذَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا "[1].

ويمكننا من خلال باقي الصفات التي وصف الله _ﷻ_ بها نبيه يحيى _عليه السلام_ أن نتعرف على بعض شمائله وفضائله؛ لتكون هذه الفضائل خير مقدمة لبيان أهمية هذا الموضوع الذي يتعلق بالخطبة الشريفة التي يدور حولها موضوع البحث.

قال تعالى ﴿**وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا**﴾ " أَيْ: رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا رَحِمْنَا بِهَا زَكَرِيَّا، فَوَهَبْنَا لَهُ هَذَا الْوَلَدَ. وَعَنْ عِكْرِمَةَ: (وَحَنَانًا) أَيْ: مَحَبَّةً عَلَيْهِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ صِفَةً لِتَحَنُّنِ يَحْيَى عَلَى النَّاسِ، وَلَا سِيَّمَا عَلَى أَبَوَيْهِ، وَهُوَ مَحَبَّتُهُمَا وَالشَّفَقَةُ عَلَيْهِمَا، وَبِرُّهُ بِهِمَا. وَأَمَّا الزَّكَاةُ فَهُوَ طَهَارَةُ الْخُلُقِ وَسَلَامَتُهُ مِنَ النَّقَائِصِ وَالرَّذَائِلِ. وَالتَّقْوَى طَاعَةُ اللَّهِ بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ. ثُمَّ ذَكَرَ بِرَّهُ بِوَالِدَيْهِ

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، (ج٥/ص ١٩١)، ت: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٩ هـ.

وَطَاعَتَهُ لَهُمَا أَمْرًا وَنَهْيًا، وَتَرْكَ عُقُوقِهِمَا قَوْلًا وَفِعْلًا، فَقَالَ: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤]"(١).

ومن أبلغ شمائل نبي الله يحي _عليه السلام_ الواردة في سياق هذه الآيات أن الله _عز وجل_ شمله بالسلام في أهم مراحل رحلته إلى الله _تعالى_، هذه المراحل التي تشمل كل ما تخللها من جميع فترات حياته، بل وفترة موته أيضا، حيث قال _تعالى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥] يقول ابن كثير _رحمه الله_: "هَذِهِ الْأَوْقَاتُ الثَّلَاثَةُ أَشَدُّ مَا تَكُونُ عَلَى الْإِنْسَانِ؛ فَإِنَّهُ يَنْتَقِلُ فِي كُلٍّ مِنْهَا، مِنْ عَالَمٍ إِلَى عَالَمٍ آخَرَ فَيَفْقِدُ الْأَوَّلَ بَعْدَ مَا كَانَ أَلِفَهُ وَعَرَفَهُ، وَيَصِيرُ إِلَى الْآخَرِ وَلَا يَدْرِي مَا بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ وَلِهَذَا يَسْتَهِلُّ صَارِخًا إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْنِ الْأَحْشَاءِ وَفَارَقَ لِينَهَا وَضَمَّهَا، وَيَنْتَقِلُ إِلَى هَذِهِ الدَّارِ لِيُكَابِدَ هُمُومَهَا وَغُمُومَهَا، وَكَذَلِكَ إِذَا فَارَقَ هَذِهِ الدَّارَ، وَانْتَقَلَ إِلَى عَالَمِ الْبَرْزَخِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ دَارِ الْقَرَارِ، وَصَارَ بَعْدَ الدُّورِ وَالْقُصُورِ، إِلَى عَرْصَةِ الْأَمْوَاتِ سُكَّانِ الْقُبُورِ، وَانْتَظَرَ هُنَاكَ النَّفْخَةَ فِي الصُّوَرِ لِيَوْمِ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ"(٢).

ومع كل هذه الشمائل والفضائل إلا أن نبي الله يحيى بن ذكريا عليه السلام لاقى ما لاقى من العنت والإيذاء من بني إسرائيل، وقد وصل الإيذاء مداه بأن أقدموا على جريمة نكراء كبرت عند الله تعالى بأن أقدموا على قتله، وَذَكَرُوا فِي قَتْلِهِ عليه السلام أَسْبَابًا كَثِيرَةً "مِنْ أَشْهَرِهَا أَنَّ بَعْضَ مُلُوكِ ذَلِكَ الزَّمَانِ بِدِمَشْقَ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِبَعْضِ مَحَارِمِهِ، أَوْ مَنْ لَا يَحِلُّ لَهُ تَزْوِيجُهَا، فَنَهَاهُ يَحْيَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَنْ ذَلِكَ، فَبَقِيَ فِي نَفْسِهَا مِنْهُ، فَلَمَّا كَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَلِكِ مَا يُحِبُّ مِنْهَا، اسْتَوْهَبَتْ مِنْهُ دَمَ يَحْيَى فَوَهَبَهُ لَهَا فَبَعَثَتْ إِلَيْهِ مَنْ قَتَلَهُ وَجَاءَ بِرَأْسِهِ

(١) البداية والنهاية، عماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت:٧٧٤ هـ)،(ج٢:ص٤٠١)، ط: هجر للطباعة والنشر – الجيزة، الطبعة: الاولى ١٤١٧هـ – ١٩٩٧ م.

(٢) المصدر نفسه.

وَدَمِهِ فِي طَسْتٍ إِلَى عِنْدِهَا، فَيُقَالُ: إِنَّهَا هَلَكَتْ مِنْ فَوْرِهَا وَسَاعَتِهَا. وَقِيلَ: بَلْ أَحَبَّتْهُ امْرَأَةُ ذَلِكَ الْمَلِكِ وَرَاسَلَتْهُ، فَأَبَى عَلَيْهَا، فَلَمَّا يَئِسَتْ مِنْهُ تَحَيَّلَتْ فِي أَنِ اسْتَوْهَبَتْهُ مِنَ الْمَلِكِ، فَتَمَنَّعَ عَلَيْهَا الْمَلِكُ، ثُمَّ أَجَابَهَا إِلَى ذَلِكَ، فَبَعَثَتْ مَنْ قَتَلَهُ وَأَحْضَرَ إِلَيْهَا رَأْسَهُ وَدَمَهُ فِي طَسْتٍ"[1].

ومن بليغ أقواله _عليه السلام_ الحديث الذي معنا والذي تضمن خطبة عظيمة رواها خاتم الأنبياء والمرسلين _ﷺ_ لأصحابه عن كلمات أوحى الله _تعالى_ بها لهذا النبي الكريم، ولا ريب أن هذه البلاغة العالية في هذه الخطبة قد خرجت من مشكاة بلاغة رسولنا الكريم _ﷺ_، الذي أوتي جوامع الكلم، فالمعنى وإن كان قد خرج من نبي الله يحيى _عليه السلام_، إلا أن الألفاظ والأساليب هي معين النبوة العذب الصافي، الذي عبر عن هذه المعاني الجليلة بلسان عربي مبين.

وهذه الكلمات الخمس العظيمة جاءت عن طريق ضرب الأمثال وتضمنت أربع صور تشبيهية في قمة الجمال الفني، حيث صورت هذه التشبيهات فضل مجموعة من أصول العبادات والطاعات وصورتها في صور بيانية رائعة، وهذه الطريقة البيانية لها منزلة عالية جدا في البلاغة؛ حيث إن " الْمَقْصُودَ مِنْ ضَرْبِ الْأَمْثَالِ أَنَّهَا تُؤَثِّرُ فِي الْقُلُوبِ مَا لَا يُؤَثِّرُهُ وَصْفُ الشَّيْءِ فِي نَفْسِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْغَرَضَ مِنَ الْمَثَلِ تَشْبِيهُ الْخَفِيِّ بِالْجَلِيِّ، وَالْغَائِبِ بِالشَّاهِدِ، فَيَتَأَكَّدُ الْوُقُوفُ عَلَى مَاهِيَّتِهِ، وَيَصِيرُ الْحِسُّ مُطَابِقًا لِلْعَقْلِ وَذَلِكَ فِي نِهَايَةِ الْإِيضَاحِ"[2].

فأردت أن أشرف قلمي بدراسة هذه الخطبة الجليلة دراسة بلاغية عنوانها: (خطبة نبي الله يحيى بن زكريا _عليهما السلام_ دراسة بلاغية)،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، (٢/ ٣١٢)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ.

راجيا من الله تعالى أن تكون هذه الكلمات تنويها طيبا على شرف هذه الخطبة ودعوة للمؤمنين أن يمتثلوا لهذه التوجيهات، وإرشادا للباحثين أن ينهلوا من فيض هذه الكنوز الطيبة، وهذا ما حاولت أن تنهض به هذه الدراسة من خلال هذه المقدمة التي تلاها تمهيد عنوانه: بين يدي الكلمات المباركة، ثم المباحث الآتية:

المبحث الأول: إن الشرك لظلم عظيم.

المبحث الثاني: مقام العبد في الصلاة.

المبحث الثالث: لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

المبحث الرابع: الصدقة منجاة من المهلكات.

المبحث الخامس: ذكر الله حرز للمؤمن.

ثم الخاتمة التي فيها أهم ما توصل إليه هذا البحث، ثم فهرس المراجع.

والله أسأل أن يكتب لهذه الأطروحة البحثية التوفيق والقبول والسداد؛ إنه بكل جميل كفيل، وصل اللهم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

د/حامد محمود حامد عوض
مدرس البلاغة والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
بدسوق جامعة الأزهر.

تمهيد: بين يدي الكلمات المباركة

بين يدي هذه الخطبة المباركة التي رواها رسول الله _صلى الله عليه وسلم_ لأصحابه عن هذه الكلمات الخمس التي أوحاها الله _عز وجل_ لنبيه يحيى بن زكريا _عليهما السلام_ ملابسات عظيمة تجعل لهذه الخطبة مكانة عالية ميزتها عن كثير من الخطب بمزيد شرف وفضل؛ لأن هذه الملابسات تحدثت عن الموحِي، والموحَى إليه، وقيدِ البلاغ، ثم إبطاءِ الموحَى إليه بالبلاغ، وحضٍ عليه من رسولٍ كريم آخر، انتهاءً بموضعٍ شريفٍ للخطبة، واجتماعٍ غير مسبوق للاستماع لها.

كل هذه الملابسات ذكرها خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بقوله: (إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا وَيَأْمُرَ بني إسرائيل أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنَّهُ كَادَ أَنْ يُبْطِئَ بِهَا، فَقَالَ عِيسَى: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ لِتَعْمَلَ بِهَا وَتَأْمُرَ بني إسرائيل أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، فَإِمَّا أَنْ تَأْمُرَهُمْ، وَإِمَّا أَنَا آمُرُهُمْ، فَقَالَ يَحْيَى: أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي بِهَا أَنْ يُخْسَفَ بِي أَوْ أُعَذَّبَ، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي بَيْتِ المَقْدِسِ، فَامْتَلَأَ المَسْجِدُ وَقَعَدُوا عَلَى الشُّرَفِ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ، وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ).

فما أعلاها من توطئة تدل على قيمة هذه الكلمات المباركة، حيث افتتحت بالتأكيد الذي يناسب أهمية هذا الكلام وقوته كما أمر الله _تعالى_ يحيى عليه السلام أن يأخذ الكتاب بقوة، فكذلك جاءت أساليب القوة في مطلع رواية هذه الخطبة المباركة من التأكيد بإن، واسمية الجملة، وتحقق الوقوع بالفعل الماضي:(أمر)، كل ذلك والخبر ابتدائي، لا يستدعي التوكيد في مقتضى الظاهر، ولكن جاء الأسلوب على هذا النحو؛ لأن المعنى يستحق هذه الحفاوة، ويستحق هذه التوطئة القوية القيمة.

وإذا تسنى أن نتفكر في ملابسات هذا التمهيد لهذه الكلمات التي أوحى الله _تعالى_ بها لنبيه يحي عليه السلام من خلال موجوعة من العناصر التي تشاركت فيه، فإن أول هذه العناصر هو الموحي وهو الله _ ﷻ_، الذي أوثر

في التعبير عنه _تبارك وتعالى_ باسم الجلالة المعظم: (الله)، وإيثار ذكر هذا الاسم الجليل الذي يجمع معاني الجلال والجمال، في هذا المقام مناسب تماما لمقام الوحي الذي هو من أعظم مظاهر الألوهية، فكفى بهذه الكلمات شرفا أن الذي أوحى بها هو الله تعالى رب العالمين، وهذا يكفي للإشارة إلى عظيم قدر هذه الكلمات المباركة.

ثم جاء العنصر الثاني وهو الوحي نفسه، وعبر عنه بلفظ الأمر الجازم الذي تحقق وقوعه بالفعل الماضي: (أمر)، وهذا مناسب تماما للجد والقوة الملازم لهذا النبي الكريم الذي آتاه الله الحكم صبيا، وقبل ذلك أمره الله بالجد والقوة منذ نشأته، فلم يقل نبينا _ﷺ_ في رواية هذه الخطبة: إن الله نصح أو أرشد يحيى، بل آثر هذا اللفظ: (أمر)، هذا الأمر الذي اقتضى فعلين من نبي الله يحيى، الفعل الأول: أن يعمل بها أولا، ثم أن يبلغها للناس ثانيا، ولعل تقديم العمل على التعليم في هذا المقام هو خصوصية تناسب النشأة القوية والعبادة الجادة لنبي الله يحيى؛ لأن ما نتعارف عليه أن العلم والتعليم يأتيان أولا، ثم يأتي بعد ذلك العمل عند من وفقهم الله تعالى لذلك، وعند أعلى الناس درجة في دنيانا، فضلا عمن يقولون مالا يفعلون الذين وبختهم الآيتان الكريمتان: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ* كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾[الصف: ٢ -٣]، ومن المشهور عند العلماء العاملين: " العلم يهتف بالعمل، فإن أجاب وإلا ارتحل – انتهى، وقد قيل:

لا ترض من رجل حلاوة قوله ... حتى يصدق ما يقول فعال

فإذا وزنت مقاله بفعالـه ... فتوازنا فإخاء ذاك جمـال "(١).

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي (١٦/ ١٩)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، بدون تاريخ.

وألفَّ الخطيب البغدادي رحمه الله كتاباً سماه: (اقتضاء العلم العمل)، أي: أن العلم يقتضي أن يعمل الإنسان، فالعلم عادة يأتي أولا، فالأمر بالعمل بالكلمات قبل ذكرها دليل على هذه الخصوصية التي تناسب نبي الله يحيى بن زكريا _عليهما السلام_.

ومن الملابسات المهمة في هذه التوطئة ترويه _عليه السلام_ في إبلاغ بني إسرائيل بهذه التوجيهات المباركة، وحث عيسى بن مريم _عليه السلام_ له بالمسارعة في الإبلاغ، حيث يقول النبي _ﷺ_: (وَإِنَّهُ كَادَ أَنْ يُبْطِئَ بِهَا، فَقَالَ عِيسَى: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ لِتَعْمَلَ بِهَا وَتَأْمُرَ بني إسرائيل أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، فَإِمَّا أَنْ تَأْمُرَهُمْ، وَإِمَّا أَنَا آمُرُهُمْ، فَقَالَ يَحْيَى: أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي بِهَا أَنْ يُخْسَفَ بِي أَوْ أُعَذَّبَ)، وهذا التروي يدل كذلك على عظيم قدر هذه الكلمات المباركة، وأنه _عليه السلام_ راجع نفسه مليا قبل أن يبلغها لبني إسرائيل، ومن المعقول أن تكون المراجعة متعلقة بعمله _عليه السلام_ بالكلمات قبل الدعوة إليها؛ لأن هذا هو صريح ما أُمر به _عليه السلام_.

وأما حثُّ عيسى بن مريم _عليه السلام_ ليحيى بن زكريا _عليهما السلام_ بالإسراع في الدعوة والتبليغ، فهذا يدل على أن عيسى عليه السلام علم بهذا الوحي، وعلم كذلك بعظيم قده، وحرص حرصا شديدا على عدم التأخير في إبلاغ بني إسرائيل بهذه الكلمات حتى يعملوا وينتفعوا بهن، فخيره _عليه السلام_ بين أن يبادر يحيى عليه السلام بالإبلاغ، وبين أن يقوم هو به، وكان هذا التخيير هو الحافز الأكبر ليحيى عليه السلام أن تنتهي هذه المراجعات منه _عليه السلام_ وأن يشرع في الإبلاغ الفوري لهذه الكلمات المباركة.

ورد يحيى عليه السلام دليل على خشيته من الله _تعالى_ وخوفه من غضبه وعذابه إن خالف ما أمره الله تعالى به؛ حيث رد قائلا: (فَقَالَ: يَا أَخِي، إِنِّي أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي أَنْ أُعَذَّبَ أَوْ يُخْسَفَ بِي)، وكأن كتم العلم من الكبر الذي يستحق فاعله الخسف كما خسف الله _تعالى_ بقارون وبداره الأرض جزاءً لكبره، وهذا من فقهه عليه السلام ومن عمق علمه بالله تعالى.

ثم الملابسة الأخيرة التي تدلنا على قيمة هذه الخطبة وتميزها، هو المكان الشريف الذي قيلت فيه، ألا وهو المسجد الأقصى المبارك، يقول النبي ﷺ:" فَجَمَعَ يَحْيَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، حَتَّى امْتَلَأَ الْمَسْجِدُ، فَقُعِدَ عَلَى الشُّرَفِ، فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللهَ ﷻ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ، وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ"، فكفاها شرفا أن تخطب هذه الخطبة في بيت المقدس، هذا المكان العزيز على قلب كل مسلم، وكذلك من الملابسات التي مهدت لبيان قدر هذه الخطبة: هذا الجمع الغفير الذي اجتمع لتلقي هذه التوجيهات العظيمة، فيا له من تمهيد عظيم، وما أعظمها من خطبة مباركة.

وكل هذه الأساليب في تمهيد هذه الخطبة اجتمعت لإضفاء قدر كبير من التشويق لجذب انتباه السامعين ولتهييج نفوسهم وتهيئتها قبل تلقي هذه التوجيهات المهمة التي تتضمن مباني الإيمان وأركان الملة الحنيفية السمحاء التي بعث بها كل الأنبياء والمرسلين.

وهذه المحاورة بين نبي الله عيسى ونبي الله يحيى _عليهما السلام_ هي من صحبتهما الطيبة التي ورد لها بعض النظائر فيما روي لنا عنهم _عليهم السلام، "فعَنْ قَتَادَةَ، أَنَّ الْحَسَنَ قَالَ: إِنْ يَحْيَى وَعِيسَى الْتَقَيَا فَقَالَ لَهُ عِيسَى: اسْتَغْفِرْ لِي، أَنْتَ خَيْرٌ مِنِّي. فَقَالَ لَهُ الْآخَرُ: اسْتَغْفِرْ لِي، أَنْتَ خَيْرٌ مِنِّي. فَقَالَ لَهُ عِيسَى: أَنْتَ خَيْرٌ مِنِّي؛ سَلَّمْتُ عَلَى نَفْسِي، وَسَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْكَ. فَعَرَفَ وَاللَّهِ فَضْلَهَا...وكَانَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَيَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا ابْنَيْ خَالَةٍ، وَكَانَ يَحْيَى يَلْبَسُ الْوَبَرَ، وَلَمْ يَكُنْ لِوَاحِدٍ مِنْهُمَا دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، وَلَا عَبْدٌ وَلَا أَمَةٌ، وَلَا مَا يَأْوِيَانِ إِلَيْهِ، أَيْنَمَا جَنَّهُمَا اللَّيْلُ أَوَيَا"[1]، فاللهم صل وسلم وبارك على أنبيائك ورسلك، وارزقنا جوارهم في جنانك إنك كريم مجيب.

(١) البداية والنهاية، (ج٢:ص٤٠٥، ٤٠٦) بتصرف.

المبحث الأول: إن الشرك لظلمٌ عظيم

(أَوَّلُهُنَّ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَإِنَّ مَثَلَ مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرِقٍ، فَقَالَ: هَذِهِ دَارِي وَهَذَا عَمَلِي فَاعْمَلْ وَأَدِّ إِلَيَّ، فَكَانَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟).

هذا هو افتتاح الكلمات الخمس الجليلة التي أوحى الله _ﷻ_ بها لنبيه يحيى _عليه السلام_، والتي قُدم فيها هذا الشأنُ العظيم، وهذه الكلمة الجليلة التي تتعلق بالأمر بتوحيد الله _تعالى_، والنهي عن الشرك به _ﷻ_، والابتداء بهذه الكلمة الجليلة هو من المناسبة العالية، والبلاغة الحكيمة؛ فتوحيد الله _تعالى_ هو أول الواجبات وأوجب الواجبات وأعظم الطاعات والقربات على الإطلاق، وهو كذلك أهم ما يبتدئ به نبي دعوته وتبليغه، وهذا الوحي والبلاغ سار فيه نبي الله يحيى عليه السلام على نهج أسلافه من الأنبياء والمرسلين، **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ **[الأعراف: ٥٩]، وقَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ **[الأعراف: ٦٥]**، وكذلك جميع المرسلين، بل وكل الدعاة والمصلحين، فلما بعث النبي _ﷺ_ معاذا رضي الله عنه إلى أهل اليمن قال: «إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا صَلَّوْا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ، تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ، فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ فَخُذْ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ»[1]، وهذا دليل على أن هذا التقديم هو في غاية المناسبة، كما

(١) صحيح البخاري، (٩/ ١١٤) (٧٣٢٧).

أن فيه من بلاغة براعة الاستهلال ما فيه؛ لأنه ما من توجيه من توجيهات الإيمان إلا وهو مظهر من مظاهر العبودية لله _تبارك وتعالى_ .

وقد احتشدت في هذا المطلع الكريم مجموعة من أساليب التشويق تضاف إلى ما سبقها مما ورد في التمهيد بين يدي هذه الكلمات المباركة، فلم يُقتصر على الأساليب التي احتشدت في هذا التمهيد، بل استمر التشويق في بداية هذه الكلمات كذلك، بل في أول حروف الكلمة الأولى، فقوله ﷺ: (أَوَّلُهُنَّ...)، هو من البيان بعد الإبهام، بل بيان بعد إبهامات كثيرة تأخذ بالألباب كل مأخذ، وتجعلها تتفكر يا ترى، ما أول هذه الكلمات التي أوحى الله بها لنبيه يحيى والتي أبطأ بها، ثم جمع الناس في هذا المشهد العظيم لتلقيها؟ ثم بعد ذلك يقول ﷺ (أولهن)، وهذا إبهام جديد قبل البيان مباشرة، ولكن الإبهام هذه المرة أعظم أهمية؛ لأن ما سيبينه هو الأولى والمقدم في الترتيب والمنزلة والقدر، وبعده مباشرة يأتي رِي العلم والمعرفة بعد ظمأ التشويق والإثارة، فيروي القلوب، ويتمكن من العقول والأفهام.

والبيان بعد الإبهام هو من صور الإطناب الذي حسن في هذا المقام لبسط الكلام حول هذه الكلمات الخمس التي احتشد الناس لسماعها وبيان مواعظها وفوائدها، فكان الإطناب هو الأنسب لهذا المقام، وهو المطابق لمقتضى حال السامع والمتكلم.

وبداية البيان قوله: (أن تعبدوا الله)، وأن والفعل المضارع يؤولان إلى مصدر وقع في محل خبر المبتدأ، وتقديره: (عبادتكم)، وهذا التعبير الذي آثره ﷺ فيه دلالة على حتمية تجدد العبادة الخالصة لله تعالى في كل الحركات والسكنات، وفي كل الأقوال والأفعال، وفي كل ما يظهر على جوارح الإنسان أو يبطن في قلبه، فعبادة الله تعالى ليست قالبا جامدا بل تتجدد في كل لحظة وفي كل حين، في كل حركات الإنسان، بل وفي سكناته تتجدد العبادة بالكف عما حرم الله، فكل ما يرضي رب العالمين هو عبادة قولا أو فعلا، ظاهرا أو

باطنا، أداء أو تركا، وكل هذا التجدد مستفاد من هذا الفعل المضارع: (أن تعبدوا الله).

والشق الآخر من بيان الكلمة الأولى من كلمات نبي الله يحيى عليه السلام هو قوله: (ولا تشركوا به شيئا)، وهو شق لا يتجزأ عن الشق الأول، فمن أشرك بالله شيئا حبطت عبادته لله، فهما صنوان متلازمان لا انفكاك بينهما، وصيغة هذا الشق هو النهي الصريح بلا الناهية التي توجهت إلى الفعل المضارع المتصل بواو الجماعة كذلك، فكما تتجدد العبادة يتجدد النهي عن الشرك والحذر منه في كل حين، وكما يتوجه الحض على العبادة للمؤمنين جميعهم فيتوجه كذلك النهي عن الشرك لكل مؤمن بالله من لدن ءادم إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

ومن الملاحظ مجيء التنكير قي:(شيئا) في سياق النهي: (ولا تشركوا به شيئا)، ليعم هذا النهي كل صغير وكبير، فأي إشراك بالله في عبادته يحبط عمل الإنسان، ويحجبه عن المغفرة، ويدخله في غضب الله وعقابه، مهما كان هذا الإشراك صغيرا أو كبيرا.

وهذا البيان بمجمله هو إجمال لمشبه به تقدم في هذه الصورة التمثيلية البيانية الرائعة: (فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ رَجُلٍ...)، وهذه صورة تمثيلية تصور الظلم والجريمة النكراء التي يقدم عليها من أشرك بالله تعالى وقد خلقة ورزقه وأنعم عليه، فإذا به يصرف عبادته لغير وجهتها المستحقة، ويظلم نفسه أعظم الظلم بالشرك بالله _تعالى_.

ومن أبرز ما يطالعنا في هذا التشبيه المؤثر هو أداة التشبيه:(مثل)، وهذه الأداة تختلف عن غيرها من الأدوات؛ يقول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا): "أَصْلُ الْمَثَلِ بِفَتْحَتَيْنِ هُوَ النَّظِيرُ وَالْمُشَابِهُ، وَيُقَالُ أَيْضًا مِثْلُ بِكَسْرِ الْمِيمِ وَسُكُونِ الثَّاءِ، وَقَدِ اخْتَصَّ لَفْظُ الْمَثَلِ (بِفَتْحَتَيْنِ) بِإِطْلَاقِهِ عَلَى الْحَالِ الْغَرِيبَةِ الشَّأْنِ لِأَنَّهَا بِحَيْثُ تُمَثِّلُ لِلنَّاسِ وَتُوَضِّحُ وَتُشَبِّهُ سَوَاءٌ شُبِّهَتْ كَمَا هُنَا، أَمْ لَمْ تُشَبَّهْ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ

ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ [الرَّعْد: ٣٥]"[١]، فدلالة هذه الأداة الرائعة تنبع من بنيتها الدالة صراحة على المماثلة، ثم تطورت هذه الدلالة لتشمل الأقوال التي اشتهرت وسارت عبر الأزمان "وَبِإِطْلَاقِهِ عَلَى قَوْلٍ يَصْدُرُ فِي حَالٍ غَرِيبَةٍ فَيُحْفَظُ وَيَشِيعُ بَيْنَ النَّاسِ لِبَلَاغَةٍ وَإِبْدَاعٍ فِيهِ، فَلَا يَزَالُ النَّاسُ يَذْكُرُونَ الْحَالَ الَّتِي قِيلَ فِيهَا ذَلِكَ الْقَوْلُ تَبَعًا لِذِكْرِهِ ... وَأَمْثَالُ الْعَرَبِ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ بَلَاغَتِهِمْ"[٢].

أما في جانب التصوير البياني فقد شاع استخدام هذه الأداة في التشبيهات التمثيلية المركبة، كالتشبيه الذي معنا، كما أن هذه الأداة جاءت مرة بدون الكاف قبل الإشارة للمشبه ثم اتصلت بكاف التشبيه عند الإشارة للمشبه به إمعانا في هذا التمثيل وتعمقا في وصف هيئته؛ حيث إنه "لَمَّا شَاعَ إِطْلَاقُ لَفْظِ الْمَثَلِ (بِالتَّحْرِيكِ) عَلَى الْحَالَةِ الْعَجِيبَةِ الشَّأْنِ جَعَلَ الْبُلَغَاءُ إِذَا أَرَادُوا تَشْبِيهَ حَالَةٍ مُرَكَّبَةٍ بِحَالَةٍ مُرَكَّبَةٍ أَعَنَى وَصْفَيْنِ مُنْتَزَعَيْنِ مِنْ مُتَعَدِّدٍ أَتَوْا فِي جَانِبِ الْمُشَبَّهِ وَالْمُشَبَّهِ بِهِ مَعًا أَوْ فِي جَانِبِ أَحَدِهِمَا بِلَفْظِ الْمَثَلِ وَأَدْخَلُوا الْكَافَ وَنَحْوَهَا مِنْ حُرُوفِ التَّشْبِيهِ عَلَى الْمُشَبَّهِ بِهِ مِنْهُمَا وَلَا يُطْلِقُونَ ذَلِكَ عَلَى التَّشْبِيهِ الْبَسِيطِ فَلَا يَقُولُونَ مَثَلُ فُلَانٍ كَمَثَلِ الْأَسَدِ وَقَلَّمَا شَبَّهُوا حَالًا مُرَكَّبَةً بِحَالٍ مُرَكَّبَةٍ مُقْتَصِرِينَ عَلَى الْكَافِ ...؛ وَذَلِكَ لِيَتَبَادَرَ لِلسَّامِعِ أَنَّ الْمَقْصُودَ تَشْبِيهُ حَالَةٍ بِحَالَةٍ لَا ذَاتٍ بِذَاتٍ وَلَا حَالَةٍ بِذَاتٍ"[٣].

---

(١) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد «التحرير والتنوير»، للشيخ: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)،(١/ ٣٠٢)، ط: الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤ م.

(٢) السابق (١/ ٣٠٣).

(٣) المصدر نفسه (١/ ٣٠٤) بتصرف.

فاجتماع الكاف مع مثل في هذا المقام أصبح علامة بارزة على تفرد التمثيل وأن فيه من الخصوصية والدلالة ما فيه، كما أن الكاف أصبحت عنصرا أساسيا في الدلالة على هذا التمثيل باتصالها ب(مثل)، " فَصَارَ لَفْظُ الْمَثَلِ فِي تَشْبِيهِ الْهَيْئَةِ مَنْسِيًّا مِنْ أَصْلِ وَضْعِهِ وَمُسْتَعْمَلًا فِي مَعْنَى الْحَالَةِ فَلِذَلِكَ لَا يَسْتَغْنُونَ عَنِ الْإِتْيَانِ بِحَرْفِ التَّشْبِيهِ حَتَّى مَعَ وُجُودِ لَفْظِ الْمَثَلِ فَصَارَتِ الْكَافُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: كَمَثَلِ دَالَّةً عَلَى التَّشْبِيهِ وَلَيْسَتْ زَائِدَةً كَمَا البعض... أَلَا تَرَى كَيْفَ اسْتُغْنِيَ عَنْ إِعَادَةِ لَفْظِ الْمَثَلِ عِنْدَ الْعَطْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْ كَصَيِّبٍ وَلَمْ يُسْتَغْنَ عَنِ الْكَافِ"(١)، وهذه الطريقة في التمثيل هي طريقة قرآنية مباركة وردت كثيرا في تشبيهات الكتاب العزيز.

وإذا تأملنا في الركن الأول من التشبيه سنجد أن هذا التشبيه من نبي الله يحيى عليه السلام اكتفى بتصوير المشرك فقط مع أن الوصية مزدوجة بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، حيث قال عليه السلام في أول الكلمات:(أَوَّلُهُنَّ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)، فهو حض على التوحيد ونهي عن الشرك أعقبه تصوير المشرك وحده دون تصوير حال الموحد؛ وفي ذلك إشارة إلى أنه من سلم من الشرك فقد خلص توحيده وخلصت عبادته لله تعالى، كما أنه يترك للذهن تصور صورة الموحد بعدما تتم صورة المشرك بالله، فيقابل العقل بين هذه الصورة التي مثلت له في بيان ظلم المشرك، وبين ما يقابلها من صورة من أخلص العبادة لله _تعالى_ وحده.

وكذلك أتى هذا المشبه بالتعبير بصيغة العاقل:(من)، في قوله:(وإن مثل من أشرك بالله)؛ وذلك لإفادة أن المشرك أتى بجريمة لا تليق بمن به مثقال ذرة من عقل، فإذا كانت الجمادات قد سلمت من هذا الرجس الكبير، فكيف بمن منحه الله _سبحانه وتعالى_ نعمة العقل ليستدل به على توحيده، فإذا بهذا

(١) المصدر نفسه.

المشرك يرتكب هذه الحماقة ويقدم على هذا الفعل السخيف دون استفادة بما مُيز به عن الجمادات التي لا تعقل.

والفعل الماضي: (أشرك) يدل على أن هذه الجريمة لا تسقط بالتقادم إلا في حالة توبة صاحبها بخلاف ما لو قال ﷺ: (من يشرك بالله) حينها سيكون الذم متعلقا بمن تجدد منه الشرك، فتشبيه الفعل الماضي أبلغ في هذا المقام الذي يصور ظلم من أقدم على هذا الأمر الشنيع.

ثم تأتي الوقفة المهمة مع صورة المشبه به، وهي بيت القصيد وركن التشبيه الركين الذي يرسم ملامح الصورة ويحدد ظلالها ويقرر أهدافها، وهو قوله ﷺ:(كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرِقٍ، فَقَالَ: هَذِهِ دَارِي وَهَذَا عَمَلِي فَاعْمَلْ وَأَدِّ إِلَيَّ، فَكَانَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟)، وهذا المشبه به بلغ التشبيه من خلاله غاية الوضوح في بيان ظلم المشرك بالله، وهي صورة مكونة من أمور يدل تركيبها على استحقاق المشرك بالله أن يتصف بالظلم البين الذي لا يسوغ لعاقل أن يرضاه لنفسه فضلا عن أن يرضاه لربه تبارك وتعالى، فهو تشبيه تمثيلي مركب، حيث شبهت فيه هيئة بهيئة، أي هيئة ظلم المشرك بالله بهيئة ظلم العبد الجاحد لحقوق سيده، وهذه الهيئات مركبة من مجموعة من الأعمدة والصلات، أول هذه الأعمدة في صورة المشبه به هو السيد المشتري الذي تعامل معه العبد بأشد أنواع الخسة والبخس، وعبر ﷺ عن هذا السيد بصيغة التنكير في قوله: (رجل)؛ لأنها صورة متخيلة لم يقصد بها أحد بعينه وإنما قصد بها ضرب المثل وتمثيل الصورة.

والعمود الثاني لهيئة المشبه به أن هذا السيد استحق تملك هذا العبد استحقاقا خالصا لا تشوبه شائبه؛ وذلك بالشراء التام من خالص ماله، فلم يعتر هذا الملك ما ينقص من استحقاق لوازمه من تملك هذا العبد وتملك غلة عمله، وتم النص صراحة على الثمن الذي دفع لاستحقاق هذا الملك، فقال _ﷺ_: (اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرِقٍ)، حيث دفع في مقابل

استحقاق هذه الملكية أغلى الأثمان وهما الذهب والفضة؛ لذا كان الواجب في حق السيد أعلى خدمة وطاعة من العبد، مقابل ما دفع من أكرم الأموال وأشرفها، وبالتالي فقد انتفى أدنى مبرر للانتقاص من حقوق السيد أو صرفها في غير محلها.

أما العمود الثالث في هيئة المشبه به هو هذا العبد المشتري وعبر عنه _عليه السلام_ بقوله: (عبدا)؛ ونكر كذلك لأنه مثل ضرب لكل مشرك جائر؛ ولكل عبد آبق؛ أكل خير سيده ولم يؤد له حقوقه التي وجبت له من حسن الطاعة وأداء الأمانة.

والعمود الرابع في هذه الهيئة هو بيان تفصيلي لهذه الخسة والدناءة من العبد، وكيف أنه خان الأمانة وأخل بحقوق سيده ائتمنه وقال له:(هَذِهِ دَارِي وَهَذَا عَمَلِي فَاعْمَلْ وَأَدِّ إِلَيَّ، فَكَانَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ)، وأسماء الإشارة في قول السيد تشير إلى شدة وضوح ما استأمن العبد عليه، فالدار والعمل واضحان مشار إليهما بالبنان، مما يدل على ظهورهما لكل ذي عينين وأنهما غير خافيتين، فلا يمكن لهذا العبد أن يخطأ في معرفتهما أو تلتبسان عليه.

ويؤكد هذا الوضوح قوله: (فَاعْمَلْ وَأَدِّ إِلَيَّ)، فمحل العمل والاداء واضحان كما أن الأمر واضح ودلالته قاطعة ولا لبس فيه، ولكن استجابة هذا العبد جاءت بالمخالفة الواضحة لأوامر السيد في قوله _عليهما السلام_: (فَكَانَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ)، والفعل المضارع في وصف مخالفة العبد لأوامر سيده تدل على تكرار خيانة هذا العبد وأنه فعلها مرة بعد مرة، فكانت الخيانة حاله، وكان الظلم ديدنه، بخلاف ما لو فعلها مرة على سبيل الضعف أو الخطأ، بل أصر على الخيانة وتعمد هذا الظلم البين وتكرر منه حتى صار مضربا للمثل في الخسة والدناءة.

وفى قوله عليه السلام: (فَكَانَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ)، وضع للمظهر موضع المضمر، حيث كان يكفي التعبير عن السيد بضمير الغائب لو قال: (ويؤدي إلى غيره)؛ ولكن أوثر أن يصرح بذكر السيد مظهرا لئلا يلتبس

الحديث عن السيد والعبد في هذا الموضوع؛ ولأن السيد هو الذي ظلم في ماله، وهو الذي استحق هذه الحقوق، فكان الإظهار هو المناسب له والأوفى لحقه.

وبعد تمام هذه الصورة التشبيهية المعبرة جاء هذا الختام الرائع: (فَأَيُّكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟)، وهو استفهام غرضه تقرير المخاطبين بإنكار هذا الظلم البين الذي لا يرتضيه أحد لنفسه فكيف يمكن أن يرتضيه أحد لربه تبارك وتعالى؟! وفي الخروج بهذا التقرير عن الأسلوب الخبري وإيثار وضعه في قالب الاستفهام تحريك لذهن المخاطب وإيقاظ لمشاعره، ولفت لانتباهه، وحمل للسامعين على الإقرار بإنكاره وعدم قبوله أو الرضى به، "وهذا أوقع في أداء المعنى وأوثق؛ لأن صاحب الصفة لا يدعيها، وإنما يقر غيره له بها"(١)، فكما أن كل منصف له نفس أبية سيستنكر أشد الاستنكار أن يجور أحد على حاله بهذه الطريقة السالفة فكيف يسوغ في الأذهان فعل المشرك الذي يأكل من خير الله بعد أن خلقه فسواه وعدله وأرسل إليه الرسل وأنزل اليه الكتب ورزقه عقلا وسمعا وبصرا ليتعرف على توحيده وعبادته، فإذا به يصرف العبادة لغير وجهتها ويشرك بالله تعالى في إلاهيته فهذا الفعل مستنكر أشد الاستنكار، بل هو أعظم منكر وجد وسيوجد على الأرض.

وفي رواية جاء التعقيب على هذه الصورة بقوله _عليه السلام_ (وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا)، فتأتى هذه الجملة الختامية لهذه الصورة التشبيهية لتكون خير تعليل وبيان لهذا التشبيه السابق، فكما استقبحت الأذهان فعل العبد الآبق في الصورة الماضية، فإن استقباح العصيان والشرك في حق الله تعالى أشد وأعظم؛ لأن استحقاق الله تعالى للعبودية استحقاق كامل لا نقص فيه، فهو الذي خلق خلقه تبارك وتعالى ثم يرزقهم على الدوام، وبالتالي فهو المستحق للعبادة وحده دون شريك تبارك وتعالى.

---

(١) دلالات التراكيب .٢٢٥، مكتبة وهبة الطبعة الرابعة، ١٤٢٩هـ_ ٢٠٠٨م.

المبحث الثاني: منزلة العبد في الصلاة

(وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَكُمْ بِالصَّلَاةِ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلَاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ).

هذا الأمر العظيم هو أعظم الأوامر العملية على الإطلاق، حيث كان من المناسب جدا أن يبتدأ بأعظم الأوامر العقدية، وهو الأمر بتوحيد الله _تعالى_ والنهي عن الشرك به، ثم يتلوه مباشرة أعظم الأوامر العملية وهو الأمر بالصلاة التي هي ثاني أركان الدين، وأهم صلة بين العبد وربه تبارك وتعالى؛ ولذا حسن الوصل بالواو في مطلع هذه الكلمة؛ ربطا بينها وبين الكلمة الأولى، حيث جاءت الكلمتان من نفس المشكاة المباركة، وهي مشكاة العبودية ونور الألوهية؛ أولاهما: قول باللسان وتصديق بالجنان ينعكس على الجوارح والأركان، ثم تكون الكلمة الثانية كأعظم ما ينعكس على الأعمال من آثار توحيد الله _تبارك وتعالى_، وهي الصلاة.

ولخصوصية شأن هذه العبادة الجليلة في هذا الموضع اختلف التعبير في صيغة الترغيب بين هذا الأمر وبين الأمر الذي سبقه وكذلك الأوامر التي تلته؛ حيث قال ﷺ في كل هذه المواضع: (آمركم)، أما هذا الموضع خصوصا قال:(وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَكُمْ)، والحقيقة أن الله _تعالى_ هو الذي أمر بكل هذه الفضائل، والرسول ما هو إلا مبلغ عن ربه _تبارك وتعالى_، ولكن خصوصية فضل الصلاة استدعت خصوصية في الأسلوب تميزه عن سائر هذه الكلمات الجليلة.

وقد جاء هذا الأسلوب على طريقة الفعل الماضي الذي يفيد تحقق الوقوع والقطع والإلزام، فهذا أمر فرضه الله في كل شريعة وفي كل زمان، ولا يمكن لأحد أن يسلك طريق الله دون أن يتشرف بهذه العبودية الجليلة التي هي سمت الصالحين وعلامة المتقين في كل زمان.

وجنس ما رغب فيه يحيى عليه السلام قومه في هذه الكلمة هو (الصلاة) المعرفة بلام الجنس؛ لتشمل كل صلاة في كل وقت تجوز فيه، أيا كان نوع هذه الصلاة سرية أو جهرية، فرضا أو نفلا، بالكيفية التي صلى بها يحيى وزكريا وعيسى _عليهم السلام_ أو بغيرها من الكيفيات، لا سيما بالطريقة المحمدية الخاتمة التي نسخت ما قبلها وهيمنت عليها؛ ولهذا أجمل هذا الترغيب وعبر عنه بهذا الأسلوب.

وقد تلت هذا الترغيب جملة شرطية ترتبت عليه وصارت تابعا له ولازما من لوازمه، وهو قوله عليه السلام:(إِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا)، وهذه الجملة تحمل في طياتها الكثير من المعاني، منها: أن الأمر ليس بمجرد الصلاة، وإنما الأمر بإحسانها والخشوع فيها، فالأمر بعدم الالتفات في الصلاة هو كناية عن الأمر بالخشوع فيها، فالخشوع هو لازم من لوازم عدم الالتفات؛ لأن المصلي الخاشع في صلاته والمستحضر لعظيم قدر ربه لا يمكن أن يلتفت عنه، وقد ورد هذا المعنى في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا قام إلى الصلاة فإنما هو أحسبه قال بين يدي الرحمن _تبارك وتعالى_، فإذا التفت يقول _تبارك وتعالى_: إلى من تلتفت إلى خير مني؟ أقبل يا ابن آدم إلي فأنا خير ممن تلتفت إليه) (١).

وربط هذه الجملة الشرطية بالفاء مع الجملة التي سبقتها يوحي بهذا التعقيب البديع الذي عقب به نبي الله يحيى الذي معناه: إذا كان الله _ﷻ_ أمرنا بالصلاة، فما أجدر أن نخشع فيها وأن يحسن وقوفنا بين يديه _ﷻ_!، وهذا من حسن الاستجابة لأوامر الله _تعالى_، فالعبد الصالح إذا علم أن ربه هو الذي أمر بفعل معين فإنه يجوّد هذا الفعل طاعة له وسعيا في مرضاته.

ثم في النهاية يأتي بيت القصيد في قوله _عليه السلام_: (فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلَاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ)، وهذا الموضع هو الموضع

(١) مسند البزار، حديث: (٩٣٣٢).

المنتظر الذي يأتي فيه التمثيل الصريح في كل فقرة في كل مقطع من هذه الكلمات الخمس، ولكن مما يثير التأمل أن هذه الكلمة المتعلقة بفضل الصلاة تميزت كذلك عن أخواتها في باب التصوير، فكل الصور في الكلمات الأخرى هي صور تشبيهية تمثيلية صريحة إلا هذه الصورة التي تصور وقوف العبد بين يدي الله _تعالى_، فلا نستطيع تحديد مشبه به يكون هو مدار التشبيه وعموده، وحتى إذا حاولنا أن نجري الصورة على باب التشبيه الضمني، لن نصل إلى تصوير واضح كباقي الصور الخمس، وكذلك ستكون النتيجة إذا حاولنا أن نجري الصورة على باب المجاز؛ فإن التعبير عن وقوف العبد في الصلاة بين يدي الله _ﷻ_ لا يعلم فيه انتقال لفظ عما وضع له إلى استعمال آخر، ولا يتضح فيه مستعار منه ومستعار إليه، اللهم إلا أن تكون استعارة تبعية في الفعل:(ينصب) الذي يدل على الإقبال والقبول من الله _تعالى_ مع استشعار التعظيم والتنزيه لمقام رب العالمين _تبارك وتعالى_، ويبقى أن بيان هذا الإقبال من الله _تعالى_ على عبده في الصلاة يغني عن كل تمثيل وعن كل تشبيه.

وهذه الجملة التعليلية الختامية لهذه الكلمة هي خير ختام لهذه الكلمة التي ترغب في إحسان الصلاة وتحض على تجويدها والاهتمام بها، فيكفي العبد تماما أن يعلم أنه إذا صلى سيقف بين يدي الله فلا يليق به أن يلتفت لا ببصره ولا بقلبه، فما أعظمه من مقام! وما أجله من ترغيب!

المبحث الثالث

خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك

(وَآمُرُكُمْ بِالصِّيَامِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ فِي عِصَابَةٍ مَعَهُ صُرَّةٌ فِيهَا مِسْكٌ، فَكُلُّهُمْ يَعْجَبُ أَوْ يُعْجِبُهُ رِيحُهَا، وَإِنَّ رِيحَ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ).

استهلت هذه الصورة التشبيهية بالتوجيه أولا بهذا الفرض العظيم ألا وهو فرض الصيام، وكما أخبر الله _تبارك وتعالى_ فإن هذه العبادة العظيمة أمرت بها الأمم السابقة كما أمرت بها أمة النبي -ﷺ-، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ ﴾ (البقرة: ١٨٣).

ومن الملاحظ أن الأمر هنا هو بمنطوق لفظ الأمر: (آمُرُكُمْ) مع كون الفعل مضارعا؛ وذلك للدلالة على أهمية تجدد هذا النصح ما دامت الأنفاس، فهو أمر متجدد مستمر؛ لأن عبادة الله تتجدد في حياة المؤمن ولا يستغني العبد عنها على الإطلاق، بل هو في حاجة إلى التذكرة بها والإرشاد المستمر إليها.

فمن دلالة الصورة الكلية للحديث بأسره اتصال كل صورة فرعية مع ما قبلها من خلال الوصل بالواو في مقدمة كل صورة، فحينما يقول عليه السلام: (وآمركم بالصيام)، فإن هذا الأمر يتصل مع الأمرين السابقين له، وهو الأمر بتوحيد الله: (أَوَّلُهُنَّ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ)، والأمر بالصلاة: (وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَكُمْ بِالصَّلَاةِ).

ومن الملاحظ هاهنا تعريف الصيام باللام لإفادة الجنس كما عرفت الصلاة قبل ذلك، فهذه العبادة الجليلة محمودة بجنسها سواء كانت فرضا أو نفلا، وعند كل الأمم والشرائع.

ثم تأتي الصورة التشبيهية بمثابة بيان لهذا الأمر وتعليل لأهميته، فيأتي هذا البيان والتعليل مؤكدا بقوله عليه السلام: (فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ فِي عِصَابَةٍ مَعَهُ صُرَّةٌ فِيهَا مِسْكٌ، فَكُلُّهُمْ يَعْجَبُ أَوْ يُعْجِبُهُ رِيحُهَا)، وهنا تتجلى

قيمة هذه الصورة التشبيهية أنها تأتي بمثابة ترغيب للمؤمنين في هذا الركن العظيم وبيان عظيم قدره عند الله، وتوضيح للخصوصية التي يفترق بها الصائم عن غيره من الناس.

ومن الملاحظ أنه _ﷺ_ رغب في الامر بالصيام من خلال تصوير حال الصائم في صورة جميلة محببة للنفوس فقال _ﷺ_: (فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ فِي عِصَابَةٍ مَعَهُ صُرَّةٌ فِيهَا مِسْكٌ)، واسم الإشارة في صيغة المشبه وإن كان يعود إلى مصدر الصيام إلا أن التشبيه قد توجه للصائم، حيث شبه الصائم بحامل المسك في قوله: (كمثل رجل...)، وفي ذلك إشارة عظيمة لفضل هذه العبادة؛ لأنه إذا كان من يفعلها له هذا الشرف الكبير وهذا الوصف الرائع فكيف بالعبادة ذاتها، فهو _ﷺ_ لم يشبه العبادة وإنما شبه من تعبد لله تعالى بها، فقال: (كَمَثَلِ رَجُلٍ فِي عِصَابَةٍ مَعَهُ صُرَّةٌ فِيهَا مِسْكٌ، فَكُلُّهُمْ يَعْجَبُ أَوْ يُعْجِبُهُ رِيحُهَا)، والتشبيه هاهنا يأتي على سمت مشابه للتشبيه الأول في كونه يأتي معللا للعبادة، ويأتي كذلك مؤكدا بإنَّ، ويأتي بواسطة أداة التشبيه: (مثل) التي تدل على ظهور التشبيه وشدة الصلة بين المشبه والمشبه به؛ وذلك لدلالة هذه الأداة على التشبيه بمادتها اللغوية وبمعانيها البلاغية.

ومجيء اسم الإشارة العائد على المشبه بصيغة الإشارة للبعيد مناسب لعظيم قدر وبعد منزلة هذه العبادة الجليلة، كما أنه يعرف المشبه تعريفا قويا ويحدده ويميزه تمييزا واضحا؛ حيث إن" اسم الإشارة بطبيعة دلالته يحدد المراد منه تحديدا ظاهرًا ويميزه تمييزا كاشفا، وهذا التحديد قد يكون مقصدًا مهما للمتكلم؛ لأنه حين يكون معنيا بالحكم على المسند إليه بخبر ما، فإن تمييز المسند إليه تمييزا واضحا يمنح الخبر مزيدا من القوة والتقرير"[1].

(١) خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، أ.د/ محمد أبوموسى، (ص: ٢٠٠)، ط: مكتبة وهبة- القاهرة، الطبعة: السابعة ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.

ثم نأتي إلى صورة المشبه به التي يتجلى فيها جمال هذا التشبيه وروعته في قوله _عليه السلام_ (رَجُلٍ فِي عِصَابَةٍ مَعَهُ صُرَّةٌ فِيهَا مِسْكٌ)، وهذا المشبه به هو صورة مركبة من رجل له معية وحال مميزة جعلته مثالا يحتذى به، وجعلت له حالا يجده كل من حوله، ويعجب به كل من كان في معيته، فجاءت عناصر الصورة منكرة في: (رجل) و(صرة) و(عصابة)؛ ليكون الإبهام في هذا التمثيل المتخيل معبرا عن جمال أثر هذه العبادة العظيمة وعموم فضلها لكل من تجمل بها.

هذه العناصر التي توحي بالأريحية وتشعر بالسكينة والاطمئنان، لاسيما عنصر الرائحة الطيبة الزكية وهي رائحة المسك، التي جعلت للتشبيه قيمة فنية عالية، حيث أخرجت الأمر المعقول وهو فضل الصائم في صورة محسوسة بالشم، وهي هذه الرائحة الزكية الطيبة التي يشعر بها من يكون في معية حامل المسك، وهذا من حسن تأثير التمثيل في النفوس كما قرر الإمام عبد القاهر في أسراره، والتمثيل بالمحسوس هاهنا جاء على صورة انتشر عَرفها الطيب، وصارت محل إجماع عند كل النفوس التي تتذوق الجمال وتعرف قدره، فالناس: " كَمَا أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ رِيحَ الْمِسْكِ وَيُؤْثِرُونَهُ وَيَرْضَوْنَ بِهِ وَيَخْتَارُونَهُ، كَذَلِكَ اللَّهُ _عز وجل_ يُحِبُّ خُلُوفَ فَمِ الصَّائِمِ وَيُؤْثِرُهُ وَيَرْضَى بِهِ وَيَخْتَارُهُ"[1].

واجتماع هذه العناصر مناسب أشد المناسبة لخصوصية الإخلاص في عبادة الصائم التي دل عليها الحديث الإلهي: (كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلاَّ الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ وَلَخَلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ)[2]، حيث تشير صورة الرجل الذي معه صرة من مسك في عصابة

(١) بحر الفوائد المسمى بمعاني الأخبار للكلاباذي (ص: ٧٠).

(٢) صحيح البخاري، حديث (٥٩٢٧)، (٧: ٢١١)، دار الشعب – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م.

إلى هذا الاخلاص الذي يظهر أثره دون معرفة سببه، "حيث مثل النبي ـﷺـ ذلك بصاحب الصرة التي فيها المسك؛ لأنها مستورة عن العيون مخبوءة تحت ثيابه كعادة حامل المسك، وهكذا الصائم صومه مستور عن مشاهدة الخلق لا تدركه حواسهم"(١)، ووجه الشبه في هذا التشبيه هو طيب الجوهر وجمال الأثر في كل من حامل المسك والصائم الذي أرضى رب العالمين بهذه العبادة التي يخفى على الناس إدراك مظهرها، في حين أن طيب جوهرها يزين الصائم بلباس التقوى والخشوع والبعد عن الرفث واللغو وهجران قول الزور والعمل به، ويدخله في زمرة المؤمنين المتقين الخاشعين، وكذلك الأمر في جانب حامل المسك الذي يجد الناس جمال أثره ويشعرون بالأريحية في معيته ويستطيبون رائحته مع كونهم لا يرون هذا المسك وإنما هو شعور بأثر الطيب.

ولما كان هذا الوجه يحصل بضرب من التأول كان هذا التشبيه تمثيليا عند الإمام عبد القاهر –رحمه الله– ومن وافقه من العلماء؛ ولذلك هو تشبيه مركب من عدة عناصر في صورة المشبه به، فهو تشبيه تمثيلي باتفاق العلماء جميعا، وهذا التشبيه التمثيلي هو من روائع البيان النبوي وجميل أحاديث النبي –ﷺ–، لاسيما وقد صور فيه هذا الفضل المعنوي لعبادة الصوم الذي لا تدركه الحواس بهذه الصورة الحسية التي يشعر الناس بحاستهم بجميل حلاوة رائحتها، " ومعلومٌ أن العلم الأوّل أتى النفسَ أوّلاً من طريق الحواسّ والطباع، ثم من جهة النظر والرَّويَّة، فهو إذَنْ أمسُّ بها رَحِماً، وأقوى لديها ذِمَماً" (٢).

ومن جميل هذا التشبيه الرائع انه أكد مرة أخرى ولكن بصيغة تفضيل المشبه على المشبه به في المرة الثانية حيث قال –عليه السلام–: (وَإِنَّ رِيحَ الصَّائِمِ

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب، (المتوفى: ٧٥١هـ)، ص٢٦، دار الحديث –القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٩٩٩م.

(٢) أسرار البلاغة، للإمام عبد القاهر الجرجاني، (ص١٦٢) ت:الشيخ محمود شاكر، مطبعة المدني، ١٤١٢هـ: ١٩٩١م.

أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ)، وهذا من الترقي في هذا التصوير الرائع، حيث لم يُكتفي بمجرد التشبيه وإلحاق المشبه بالمشبه به الذي يكون عادة أقوى في الصفة التي تتعلق بوجه الشبه، بل ارتقى التشبيه إلى منزلة أعلى، وهى جعل المشبه، وهو الريح التي تخرج من جوف الصائم والتي جاءت في أحاديث النبي _ﷺ_ بلفظ: (خلوف) أعلى منزلة وأجمل أثرا وأرفع قدرا عند الله _تعالى_ من ريح المسك الذي يستطيبه الناس ويجدون جمال رائحته في دنياهم.

والتشبيه الذي يأتي على هذا النهج يكون مميزا في النص على وجه الشبه في أفعل التفضيل وهو قوله عليه السلام: (أطيب)، وهذا دليل على أن وجه الشبه في التشبيه الأصلي والتشبيه المؤكد له هو طيب الجوهر وجمال الأثر عند الصائم وحامل المسك.

والتقييد بالظرف في قوله: (أطيب عند الله من ريح المسك)، احتراس غرضه بيان أفضلية هذه الرائحة، فهي ليس لجمالها على الحقيقة، وإنما اكتسبت الجمال والأفضلية من كونها عبادة ترضي رب العالمين _تبارك وتعالى_، كما أن هذا التقييد يحترس عن احتمال طعن البعض في هذا التشبيه بحجة عدم استشعارهم لجمال رائحة الصائم في الدنيا؛ لأن قوله: (عند الله) "يريد في الآخرة، أي يجازيه يوم القيامة بتطييب نكهته الكريهة في الدنيا حتى تكون كريح المسك، والدليل على أنه أراد الآخرة بقوله: (عند الله) قوله تعالى: (وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ) [الحج: ٤٧] يريد أيام الآخرة، ومن هذا الباب قوله _عليه السلام_ في الشهيد: (يأتي يوم القيامة وجرحه يثعب دمًا اللون لون الدم والريح ريح المسك)، فأخبر أنه يجازى الشهيد في الآخرة بأن يجعل رائحة دمه الكريهة في الدنيا كريح المسك في الآخرة"[1].

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: ٤٤٩هـ) (٤/ ١١)، مكتبة الرشد – السعودية، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م.

وهكذا اختتمت هذه الصورة التمثيلية الرائعة بهذه الكلمة المستطابة: (المسك)، وهي صورة معهودة ومستأنسة في البيان النبوي، شبهت من خلالها العديد من الفضائل كدم الشهيد، ولكن التشبيه في الموضع الذي يصور فضل الصائم ترقى في المنزلة عن تصوير دم الشهيد، حيث جعل هاهنا أطيب؛ فقال: (أطيب عند الله)، وقال _عليه الصلاة والسلام_ في دم الشهيد: (والريح ريح المسك)، وهذا يدل على فضل عبادة الصوم وعلو منزلتها، "وإنما كان أثر الصوم أطيب من أثر الجهاد حيث وصف خلوف فم الصائم بأنه أطيب من ريح المسك، ودم الشهيد شبه ريحه بريح المسك مع ما فيه من المخاطرة بالنفس وبذل الروح؛ لأن الصوم أحد أركان الإسلام بخلاف الجهاد؛ ولأن الجهاد فرض كفاية، والصوم فرض عين، وفرض العين أفضل من فرض الكفاية، كما نص عليه الشافعي ذكره القسطلاني"[1]، وهذا يوضح عظيم قدر هذه الوصية من نبي الله يحيى بن زكريا _عليهما السلام_.

(١) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسن عبيد الله بن محمد عبد السلام بن خان محمد بن أمان الله بن حسام الدين الرحماني المباركفوري، (المتوفى: ١٤١٤هـ)، (٦/ ٤١٠)، الناشر: إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء – الجامعة السلفية – بنارس الهند، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٤ م.

المبحث الرابع: الصدقة منجاة من المهلكات

(وَآمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ العَدُوُّ، فَأَوْثَقُوا يَدَهُ إِلَى عُنُقِهِ وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ، فَقَالَ: أَنَا أَفْدِيهِ مِنْكُمْ بِالقَلِيلِ وَالكَثِيرِ، فَفَدَىٰ نَفْسَهُ مِنْهُمْ).

هذه الصورة التشبيهية التمثيلية الرائعة التي تصور فضل التصدق والجود والانفاق في سبيل الله _تعالى_، وكيف أن هذه العبادة العظيمة تنجى صاحبها من المهلكات والمحن، لاسيما أخطرها على الإنسان، وهي المحنة التي يوشك أن يفقد فيها حياته، فحينئذ تتنزل النجاة على قلب الإنسان بردا وسلاما، وتكون الفرحة بها لا تضاهيها فرحة ويكون الانسان مدينا لسبب نجاته ومعترفا بقدره ومكانته.

وتأتي هذه الصورة التشبيهية الرائعة على نفس حذو الصورتين السابقتين في نظم الكلام وسبك الجمل، حيث افتتحت كذلك بالتوجيه أولا بإرشاد الناس لفعل المشبه فقال ﷺ: (وَآمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ)، حيث يفهم الأمر من مضمون معنى الفعل المضارع الذي يدل على تجدد هذا التوجه في حياة المؤمن واستمراره باستمرار الأيام والدهور.

ثم أتى المأمور به معرفا باللام لإفادة جنس العبادة: (الصدقة)، فهي محمودة أيا كان نوعها سواء كانت زكاة مفروضة أو تطوعا مندوبا، فهي محمودة على جميع أنواعها ومندوب إليها بمختلف أجناسها.

ويستمر هذا التناسب البديع وهذا الحذو الرائع في طريقة بناء الصورة التشبيهية على التوجيه الذي يكون بمثابة الممهد لها وبعد ذلك تأتي الصورة تعليلا له وبيانا لفضله ومكانته فيقول ﷺ:(فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ العَدُوُّ، فَأَوْثَقُوا يَدَهُ إِلَى عُنُقِهِ وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ، فَقَالَ: أَنَا أَفْدِيهِ مِنْكُمْ بِالقَلِيلِ وَالكَثِيرِ، فَفَدَى نَفْسَهُ مِنْهُمْ)، وكما هو الحال في الصورتين السابقتين من بناء الأخبار عن المشبه في التشبيه على اسم الإشارة: (ذلك)؛ ولا شك أن في هذا الحذو مزيدَ استحضارٍ للصورة، ومزيدَ تمييزٍ للعبادة المشار إليها، ومزيد تركيز

لانتباه السامعين والمخاطبين لها، وهذا مناسب تماما لملابسات هذه الخطبة المباركة وللأساليب التي احتشدت للعناية بمعانيها وتوجيهاتها، كما يستمر كذلك نفس الحذو اختيار اداة التشبيه: (كمثل) التي لها تميزها ودورها البارز في ربط المشبه بالمشبه به.

أما صورة المشبه به في هذا التشبيه فهي التي يختص بها التشبيه عن التشبيهات السابقة وهي قوله ﷺ: (كَمَثَلِ رَجُلٍ...)، فهي صورة رجل وجب عليه الهلاك وتقطعت به سبل النجاة وصار بينه وبين الموت طرفة عين، فإذا به بمنقذ حاسم يأتيه في اللحظة المناسبة ألا وهو الفداء الذي يقدمه لآسريه فيعظم هذا الفداء في أعينهم ويرضون به ويرغبون عن قتل الأسير تعظيما لقدر هذا الفداء الذي يعظم فوق كل اعتبار آخر أيا كان السبب الذي دعاهم لقتله، حتى ولو كان هذا السبب هو العداوة التي نُصَّ عليها صراحة في عناصر الصورة، لكن قيمة الفداء جعلت الآسرين يتناسون هذه العداوة ويطلقون سراح الأسير الذي قدم هذا الفداء.

وإذا تأملنا في العناصر التي تآزرت في تركيب صورة المشبه به لتصوير قيمة النجاة في الصدقة سنجد تألقا بديعا وتعاونا بليغا في رسم ملامح هذه الصورة البليغة، فأول هذه العناصر هو تنكير: (رجل)، فهو ليس معروفا باسم ولا بصفة ولا بزمان ولا مكان، بل قد يوجد في كل زمان ومكان، وليس من المهم تعريف شخص بعينه؛ لأنه قد يكون هذا الرجل الناجي هو كل واحد من السامعين والمخاطبين.

العنصر الثاني: هو وقوع هذا الرجل في الأسر، وعبر عنه _ﷺ_ بقوله: (أسره العدو)، وصيغة الماضي تفيد تحقق وقوع هذا الأسر، حيث أصبح أمرا واقعا بالنسبة إليه، وصار الأسر ملازما له واقعا عليه.

والتصريح بفاعل هذا الأمر وهو العدو إشارة إلى دافع هذا الأسر، وأنه أسر مبني على عداوة، فدافعه ليس هينا، وإنما هو دافع عظيم يدل على

أهميته بالنسبة للآسرين، ويدل على رغبتهم في إيذائه والانتقام منه، حيث وقع في أيديهم بعد هذه العداوة.

العنصر الثالث: هو إحكام هذا الأسر وهو ما عبر عنه _عليه السلام_ بقوله: (فَأَوْثَقُوا يَدَهُ إِلَى عُنُقِهِ وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ، فَقَالَ: أَنَا أَفْدِيهِ مِنْكُمْ بِالقَلِيلِ وَالكَثِيرِ، فَفَدَى نَفْسَهُ مِنْهُمْ)، فهو تعبير كنائي عن إحكام هذا الأسر، وعن التأهب لقتل الأسير، فالخطر الداهم على هذا الأسير يشتد كلما تآزرت صورة مع الأخرى.

ومما يدل على صعوبة موقف هذا الأسير العدول عن صيغة المفرد من: (أسره العدو) إلى صيغة الجمع: (فَأَوْثَقُوا يَدَهُ إِلَى عُنُقِهِ)، وهذا يدل على صعوبة موقفه عند تأهبهم لقتله، فهو قليل الحيلة بين هذا الجمع الذين أحكموا وثاقه وتأهبوا لقتله، فالنقل من المفرد للجمع هو من باب ترقي الاسلوب وازدياد الشدة على هذا الأسير وبيان اشتداد ضيقه.

وقد وصل هذا الخطر لذروته بإضافة العنصر الرابع وهو قوله عليه السلام: (وقدموه...)، وهنا يوشك أن ينتهي هذا الأسر بقتل هذا الأسير وانتهاء حياته، ومما زاد في ثراء هذه الصورة الكناية عن اقتراب حتف هذا الأسير في قوله _عليه السلام_ (وقدموه ليضربوا عنقه)، وهذا التعبير أريد به لازم معناه، وهو قتل هذا الأسير وإنهاء حياته، ولا يخفى ما للكناية من قيمة بلاغية بصفة عامة؛ وذلك لأنها "تدع القارئ والسامع يستنتج ما يريد ويطمح إليه عالمه النفسي؛ لأنها تضم في دائرتها التعبيرات التي تترك ظلالاً خفيفة وتشتغل بها النفس والذهن، ويعمل فيها الخيال، فيتشعب المعنى ويزيد الإيحاء"[1]؛ ولهذا فإن تأثير ضرب العنق في النفوس يثير ما لا يثيره لفظ القتل صراحة، من استشعار لخطورة هذا القتل وتصور لقيمة النجاة منه.

---

(١) ينظر: الأداء النفسي والبلاغة العربية. د / عبد الرؤوف أبو السعد، ص (٣٠٠: ٣٠٦) . مطبعة المنصورة. ١٩٨٥م.

وبعد احتدام هذا الضيق يأتي الفرج واليسر ومخرج النجاة لهذا الأسير بعرضه الفداء على الآسرين وقبولهم به وهو ما عبر عنه _ﷺ_ بقوله: (أَنَا أَفْدِيهِ مِنْكُمْ بِالقَلِيلِ وَالكَثِيرِ، فَفَدَى نَفْسَهُ مِنْهُمْ)، وفي رواية: (فقال هل لكم أن أفتدي منكم)، وهنا تبدأ نجاة هذا الأسير بعرضه الفدية على الآسرين من خلال أسلوب الاستفهام (هل لكم)، فهو استفهام غرضه حض الآسرين على قبول هذا العرض واغراءهم بقبول هذا الفداء، وكذلك في الرواية التي معنا التي وردت بتقديم المسند إليه على الخبر المثبت في قوله: (أَنَا أَفْدِيهِ مِنْكُمْ بِالقَلِيلِ وَالكَثِيرِ)، وهذا يدل على عزمه الجاد على تقديم كل ما يملك في سبيل نجاته من أيديهم، ثم لم يذكر في النص التصريح بقبولهم لهذا العرض، وإنما ذكرت مسارعة الأسير في المبادرة بهذا الفداء انقاذا لحياته، فقال:(فَدَى نَفْسَهُ مِنْهُمْ)، وفي رواية: (فَجَعَلَ يَفتدى نَفسَه منهم)، وهذا يشعرنا أن هذا الأسير لم ينتظر ردا، وإنما سارع بتقديم الفداء وبادر به، وهذا ما نستشعره من الفاء التي وصلت الجملة الإنشائية التي عرضت الفداء بالجملة الخبرية التي وصفت مبادرته بتقديم الفداء.

وتتابع الفعلين الماضي والمضارع في: (فجعل يفتدي) يصور الحرص الشديد والمسارعة الحثيثة في قيام الأسير بهذا الفداء، وأنه قدمه متتابعا حتى ارتضى آسروه وأطلقوا سراحه.

والطباق بين (القليل) و(الكثير)، في بيان صفة الفداء الذي قدم هذا الأسير يوحي بأنه قدم كل ما أمكنه وكل ما امتلكه واستطاع أن يتخذه فداء؛ لأن (ال) هاهنا تفيد الاستغراق ومعناها أنه قدم كل شيء سواء كان قليلا أو كثيرا، والطباق كذلك يفيد عموم هذا الفداء، وأنه شمل كل شيء يمكن تقديمه؛ لأنه يشمل الضدين القليل والكثير، ويشمل كذلك ما بينهما من باب اللزوم.

والبدء بالقليل والانتهاء بالكثير يصور تدرج هذا الفداء، وأنه تصاعد حيث أخذ الاسير يقدم الفداء الأعظم فالأعظم منه، وكلما قدم فداء بحث عما هو أكثر منه، حتى استفرغ وسعه وقدم كل ما أمكنه إلى أن أتى الرضا من

الآسرين ومعه النجاة والحياة الجديدة، فأتت الفاء التي ميزت بين مرحلتين مرحلة الأسر والتهديد والاقتراب من الهلاك، وبين مرحلة النجاة والحرية والسلامة والعافية التي عبر عنها عليه السلام بقوله: (فَفَدَى نَفْسَهُ مِنْهُم)، وفي رواية: (افتدى) بهذا الفعل الذي يوحى بعناء هذا الفداء، وأنه قد بذل فيه المفتدي جهدا بالغا وثمنا غاليا، فلم يقل ﷺ: (حتى فدى نفسه)، وإنما بزيادة التاء التي تدل على الجهد الكبير والثمن الغالي في هذا الفداء، ثم يأتي الجار والمجرور في آخر عناصر الصورة لإفادة الجهة التي ابتدأ منها الفداء وهي في حوزة هؤلاء الآسرين، فيسبح العقل في تخيل الجهة التي انتهى إليها حال الأسير المحرر، والسامع يكملها في نفسه ويتخيل أنها إلى الحرية والسلامة والنجاة والعافية، وكل هذا بفضل هذا الفداء العظيم.

وكل ما سبق من العناصر التي تآزرت في صورة المشبه به إنما جاء لتخدم وجه الشبه ألا وهو: عظيم قيمة الصدقة، وأنها طوق نجاة للعبد، كما كانت النجاة لهذا الأسير الذي افتدى عنقه وكسر قيده بما قدمه من فداء، فالأغلال والقيد في صورة المشبه به هي أغلال الذنوب والمعاصي التي تقيد الإنسان وتقدمه للعذاب المستحق في نار الله _تبارك وتعالى_ ما لم تأت للعبد النجاة من الأعمال الصالحة، والتي من أخصها الصدقة التي تفتديه وتفك وثاقه وتكون بالنسبة إليه طوق النجاة تماما، كالقليل والكثير الذي بذله الأسير لينال النجاة والعافية.

المبحث الخامس

ذكر الله حرز للمؤمن

(وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ العَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّىٰ إِذَا أَتَىٰ عَلَىٰ حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ العَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ).

وهنا تأتي آخر الكلمات الخمس التي أمر الله _ﷻ_ بها نبيه يحيى بن زكريا _عليهما السلام_ من خلال هذه الصورة التشبيهية الختامية الرائعة التي تصور فضل عبادة عظيمة التي هي ذكر الله _ﷻ_، وتصفها بأنها حصن للإنسان من أعدائه جميعا، لاسيما الشيطان الذي يريد أن يغويه ويبعده عن الله _تبارك وتعالى_.

فعلى نفس الحذو السابق في بناء الصورة التشبيهية على الأمر الذي يفهم معناه من فحوى الفعل المضارع (آمركم) الذي يتصل بواو العطف؛ وذلك لوصل كل الأوامر ببعضها، فكل هذه الجمل هي أخوات خرجت من رحم واحد، ألا وهو عبادة الله _تبارك وتعالى_، فالأمر بعبادة الله يتصل بالأمر بالصلاة، ويتصل بالأمر بالصيام والصدقة والذكر، وكذلك كل صورة تشبيهية تتآزر مع أخواتها في تصوير فضل عبادة الله _تعالى_ مهما تعددت صور هذه العبادات المباركة.

ثم يأتي المشبه به في هذه الصورة التشبيهية الختامية في قوله ﷺ: (وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ)، وفي رواية: (وآمركم بذكر الله _ﷻ_ كثيرا)، وهنا بعض الخصوصيات التي تستفاد من كل رواية من الروايتين، ففي الرواية الأولى كان المأمور به هو مصدر الذكر الذي أُوِّلَ من خلال: (أن)، والفعل المضارع؛ لتمتد هذه العبادة في حياة المؤمن في كل حاضر وفي كل مستقبل؛ ولتستمر باستمرار أنفاسه في الدنيا.

أما الرواية الثانية، فالملاحظة الأولى فيها: هو إيثار التصريح بهذين الفعلين: (عَزَّ)، و (وجَلَّ) الذين يفيدان الإجلال والتقديس لاسم الجلالة _تبارك وتعالى_؛ ولعل هذا الإيثار يناسب بشدة خصوصية هذه العبادة التي لا يداوم عليها ولا يعظم نفعها الا عند من امتلأ قلبه بتعظيم الله _ﷻ_، فإذا امتلأ قلب العبد بتعظيم الله _تعالى_ انعكس ذلك على اللسان بالتسبيح والتحميد والتهليل.

أما الملاحظة الثانية في صورة المشبه به فهي هذا الوصف الذي وصف به وهو قوله: (كثيرا)، وكأنه قيد في هذا الأمر فهو عليه السلام في هذه الرواية لم يأمر بمجرد الذكر، وإنما أمر بالإكثار من الذكر، وهذا القيد في هذه الرواية مناسب تماما لأوامر ذكر الله _تعالى_ التي جاءت في الكتاب العزيز في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١﴾ (الأحزاب: ٤١)، وقوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٣٥﴾ (الأحزاب: ٣٥)؛ وذلك لأن قلة الذكر ليست من صفات المؤمنين، بل هي من صفات المنافقين كما وصفهم الله _تعالى_ في كتابه ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢﴾ (النساء:١٤٢).

وعلى نفس النهج في إيثار أداة التشبيه: (كمثل)، وفي الاشارة إلى المشبه باسم الإشارة: (فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ...)، ثم بعد ذلك يكون السمت الذي يميز كل صورة تشبيهية عن الأخرى متميزا في صورة المشبه به الذي يحمل من الخصوصيات ما يلائم المشبه وما يشترك معه فيه في وجه الشبه.

والمشبه به الذي معنا هذه المرة هو ذكرت أبهم تعريفها في قوله عليه السلام: (رَجُلٍ خَرَجَ العَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا)، فنحن لا نعلم لماذا هرب هذا الرجل مطاردا؟ ولماذا يطارده عدوه بهذه الصفة المذكورة (سراعا)؟، الشيء الوحيد الذي نعلمه أن هناك رجلا يهرب من مطاردة حثيثة لينجو بحياته، وفي هذه

الحالة العسيرة يبحث المطارد عن أي مخرج ينجيه وعن أي ملاذ يؤويه حتى يستنقذ حياته من مطارديه.

فحينما يظهر الملاذ في صورة حصن حصين، حينئذ تظهر جليا قيمته هذه النجاة التي لا تضاهيها قيمة، وذلك في قوله ﷺ:(حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ)، وانظر إلى هذا الجناس الاشتقاقي وإلى هذه المادة (حصن) التي توالت مشتقاتها ثلاث مرات: مرة في الحديث عن الملاذ الذي آوى إليه هذا المطارد، ومرة في وصف هذا الملاذ بأنه حصين فلا يمكن للمطاردين أن يخترقوه أو ينفذوا فيه، ومرة في الحديث عن المطارد بالفعل الماضي الذي يفيد تحققه من الحماية في هذا الملاذ الآمن في قوله في رواية:(فأحصن نفسه منهم)، وفي هذه الرواية: (فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ)، وهذه الكلمة: (أحرز) تتضم في الدلالة لكل ما سبقها في التعبير عن هذه النجاة العظيمة.

ووجه الشبه المستفاد من هذا التشبيه والذي يجمع بين المشبه والمشبه به هو حصول الحماية والأمان في كِلَا ركني التشبيه، ولما كان هذا الوجه متحقق في المشبه به بصورته الكلية المركبة من الرجل المطارَدَ، والعدو المطارِد، والملاذِ الآمن، اكتسب هذا التشبيه هذه القيمة العالية بتآزر ظلاله وألوانه وأدى غرضه في تصوير فضل عبادة الذكر كأحسن ما تكون طرائق التعبير عن المعاني، وفي صورة من أروع صور هذه الطرائق ألا وهي صورة هذا التشبيه التمثيلي الرائع البديع.

ثم ختم هذا التشبيه بجملة تعلل الصورة السابقة وتؤكد معناها ألا وهي قوله ﷺ: (كَذَلِكَ العَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ)، وذلك بأسلوب القصر الذي يقصر الحماية والإحراز على من يتسلح بسلاح ذكر الله تعالى، وفي رواية أخرى: (وإن العبدَ أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله)، وذلك بأسلوب الشرط الذي سبق فيه جواب الشرط على أداته وفعله، حيث تقدم فيها فضل الذكر وثمرته على فعل الشرط الذي يحض على فعل هذه العبادة الجليلة.

وإذا تأملنا أولا في جواب الشرط المتقدم: سنجد أنه في البداية سبق بواو العطف الذي وصلت الجملة الشرطية بما قبلها؛ وذلك للدلالة على أنها ليست من جنس مخالف للمعنى السابق، بل هي صنوان سقيت بماء واحد.

ثم ثانيا: نجد أن الجواب جاء على صيغة أفعل التفضيل (أحصن)؛ للإشارة إلى أن هذا هو معنى التحصين والأمان وفي أقصى ذروة في سنام هذه النعمة؛ لأن الحماية هاهنا تكون من القوي العزيز _تبارك وتعالى_، وبالتالي فهي حماية لا تضاهيها حماية، وهي مناسبة تماما للصيغة التي أوثر الحديث من خلالها.

وإذا تأملنا كذلك في هذه الجملة الختامية: (كَذَلِكَ العَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ)، سنجد أنه هاهنا صرح بذكر العدو، بخلاف الاشارة إليه بلفظ: (العدو) في صورة المشبه به (رَجُلٍ خَرَجَ العَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا...)، فلما تمت الصورة التشبيهية وأتت هذه الجملة الختامية أوثر التصريح باسم العدو، فهو من البيان بعد الإبهام، ومن حسن الإطناب في الحديث وزيادة تقرير المعنى.

ثم إذا تأملنا رابعا في هذه الجملة الختامية سنجد أن فعل الشرط الذي تأخر جاء ملتبسا بالجار والمجرور في رواية: (إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ)، وبالظرفية في رواية: (إذا كان في ذكر الله)؛ والرواية الأولى جاء التعبير فيها بباء الإلصاق، التي توحي بأهمية ملازمة العبد لهذه النجاة وأهمية تمسكه بسبب حمايته ونجاته، قال ابن هشام عن معنى الإلصاق في الباء: هو "معنى لَا يفارقها فَلهَذَا اقْتصر عَلَيْهِ سِيبَوَيْهِ"[1].

(١) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام (المتوفى: ٧٦١هـ)، (ص: ١٣٧)،ت: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله، دار الفكر – دمشق، الطبعة: السادسة، ١٩٨٥م.

أما التعبير بالظرفية في الرواية الثانية، فإنه يدل على الإشارة الصريحة أن من أراد الحماية والأمان والتحصين من جميع الأعداء فعليه أن يعيش مع الذكر، وكأنه مستغرق فيه ويحيا في معيته، فيذكر الله _سبحانه وتعالى_ عند استيقاظه وعند نومه وعند صباحه ومسائه وعند أكله وعند حاجاته كلها، وفي جميع أمور ضرائه ومسراته، فيصير العبد في هذه الحالة كأنه يعيش حياته في ذكر الله، فلا تتصور لهذا العبد حياة آمنة خارج هذا الوعاء الآمن، وبعيدا عن هذا الحصن الحصين.

وإذا تأملنا خامسا وسادسا وسابعا سنجد كنوزا بلاغية فمعين هذه البلاغة النبوية التي أبحر بها أفصح العالمين وهو نبينا محمد بن عبد الله _ﷺ_ سيد الأنام وخاتم الانبياء عن نبي من أنبياء الله _ﷻ_، والتي بها من الكنوز والدرر ما تعجز عن الاحاطة به أقلام العلماء، فما بالنا لو تناول هذا الكلام الشريف طويلب علم يبتغي الفهم ويسأل من الله _تعالى_ العون كما يسأله الاخلاص في القول والعمل والتوفيق والسداد؛ إنه ولى ذلك والقادر عليه.

خاتمة

في نهاية هذه البحث الذي وقف على ساحل خطبة كريمة مباركة لنبي كريم من أنبياء الله _ﷻ_، وهو نبي الله يحيى بن زكريا _عليهما وعلى جميع أنبياء الله الصلاة والسلام_، والتي بلغها _ﷺ_ في مكان شريف مقدس؛ إنه بيت المقدس زاده الله شرفا وطهره من رجس أعدائه، هذه المعاني الجليلة التي خرجت من مشكاة بلاغة رسولنا الكريم _ﷺ_، الذي أوتي جوامع الكلم، فهذه الألفاظ والأساليب هي معين النبوة العذب الصافي، وبعد تحليل أساليب وصور هذه المقاطع الخمس التي تناولت فضائل التوحيد والصلاة والصيام والذكر تخلُصُ هذه الخاتمة إلى النتائج الآتية:

أولا: هذه الخطبة الجليلة مُهِّدَ لها بما يناسب قدرها الكريم، وبما يدل على عظيم قيمتها ومكانتها؛ وذلك من خلال ملابسات عظيمة تجعل لهذه الخطبة مكانة عالية ميزتها عن كثير من الخطب بمزيد شرف وفضل؛ من حديثٍ عن الموحِي، والموحَى إليه، وعن قيد هذا البلاغ، ثم إبطاء الموحَى إليه بالبلاغ، وحَضٍ عليه من رسولٍ كريمٍ آخر، انتهاءً بالمكان الشريف المقدس الذي خطبت فيه، واجتماعٍ غير مسبوق للاستماع لها، كل هذه الملابسات ذكرها خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وقد احتشدت فيها أساليب التشريف والتكريم التي تستحقها هذه الخطبة المباركة.

ثانيا: جاءت كلمات الخطبة الخمس العظيمة عن طريق ضرب الأمثال، وتضمنت أربع صور تشبيهية في قمة الجمال الفني، حيث صورت هذه التشبيهات فضل مجموعة من أصول العبادات والطاعات، وصورتها في صور بيانية رائعة، من خلال التشبيه التمثيلي الذي يصور الأمور المعنوية أو الغيبية، في صور حسية مشاهدة، فكان _ﷺ_ يشبه معاني فضائل العبادات التي لا تدركها الحواس، فيشبهها بما يستقر في النفوس العلم بها، ويتحقق في القلوب الإيمان بفضلها ومكانتها، وبالتالي يكون هذا التصوير خير ترغيب للعمل بها والالتزام بالتمسك بها.

ثالثا: تناسق الأسلوب وتشابه الحذو في التعبير عن الكلمات الخمس التي جاءت في المقاطع الخمس التي تضمنت فضائل الخطبة؛ وذلك بالبدء بالأمر المستفاد من مادة الفعل المضارع: (آمركم)، ثم بعد ذلك تبنى الصورة على مشبه عائد على الفضيلة المذكورة من خلال اسم الإشارة بقوله _عليه السلام_:(وإن مثل ذلك)، ثم تكون خصوصية كل صورة من خلال اختيار المشبه به الذي يناسب فضيلة المشبه، ويرشد النفوس إلى قيمتها وفضلها.

رابعا: كان الترغيب في هذه الفضائل عن طريق أداة تشبيه متفردة ومتميزة وهي: (مثل) التي تتقدم المشبه، ثم بعد ذكره تتكرر الأداة مقترنة بالكاف؛ وذلك للإيحاء بأن هذا المثل الذي سيرد لهذه الفضيلة مستقر في النفوس فضله، كما يستقر المثل في النفوس ويتناقل عبر الزمان، ثم يكون اجتماع الكاف معها ليصبح علامة بارزة على تفرد التمثيل وأن فيه من الخصوصيات والدلالات ما فيه، مما أشار البحث عن غيض منها.

خامسا: بعد التشابه في طريقة بناء التشبيه يكون السمت الذي يميز كل صورة تشبيهية عن الأخرى متميزا في صورة المشبه به الذي يحمل من الخصوصيات ما يلائم المشبه وما يشترك معه فيه في وجه الشبه الذي من خلاله تتقرر فضائل العبادات الجليلة التي ترشد إليها الكلمات الخمس.

سادسا: تميز التعبير عن الكلمة الثانية المتعلقة بالأمر بإحسان الصلاة، حيث لم يعقبها تمثيل واضح كما في باقي الصور التشبيهية الأربع، لأنه قد أعقبها بيان الموقف العظيم الذي يقف فيه العبد بين يدي الله _تعالى_، حيث أغنى هذا البيان عن كل تمثيل وعن كل تشبيه.

سابعا: تميز التعبير عن الكلمة الثالثة المتعلقة الصوم، حيث كان لها بعض الخصوصيات في الأسلوب؛ وذلك لخصوصية الإخلاص هذه العبادة الجليلة، كما ورد في المبحث الثالث.

ثامنا: تآزرت مع الصور التشبيهية في الكلمات الخمس كثير من أساليب المعاني، كالتعريف والتقديم والقصر والإطناب والوصل وغيرها، كما

كان للبديع دوره في أسلوبي الطباق والجناس، فتكامل التعبير البلاغي عن المعاني الجليلة المتضمنة في هذه الخطبة المباركة.

وفي ختام هذه الرحلة البحثية مع هذه الخطبة الجليلة أسأل الله _سبحانه وتعالى_ أن يكتب لهذا البحث التوفيق والسداد، وأن يغفر ما فيه من خطأ أو سهو أو زلل؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصل اللهم وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه، وعلى جميع أنبياء الله _تعالى_ ورسله، وسلم تسليما كثيرا.

الباحث: د/حامد محمود حامد عوض

مدرس البلاغة والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بدسوق جامعة الأزهر

تم بحمده تعالى في الثامن من شهر رجب الحرام ١٤٤٣هـ.

مدينة سيدي سالم، محافظة كفر الشيخ، جمهورية مصر العربية.

فهرس المراجع

(١) القرآن الكريم.

(٢) الأداء النفسي والبلاغة العربية. د / عبد الرؤوف أبو السعد، مطبعة المنصورة. ١٩٨٥م.

(٣) أسرار البلاغة، للإمام عبد القاهر الجرجاني، ت: الشيخ محمود شاكر، مطبعة المدني، ١٤١٢هـ: ١٩٩١م.

(٤) بحر الفوائد المسمى بمعاني الأخبار للكلاباذي، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

(٥) البداية والنهاية، عماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت:٧٧٤ هـ)، ط: هجر للطباعة والنشر – الجيزة، الطبعة: الاولى ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

(٦) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد (التحرير والتنوير)، للشيخ: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى:١٣٩٣هـ)، ط: الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤ م.

(٧) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ.

(٨) تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، ت: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٩ هـ.

(٩) التفسير الوسيط لفضيلة الإمام الأستاذ الدكتور سيد طنطاوي _رحمه الله_، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة: الأولى،١٩٩٨م.

(١٠) خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، أ.د/ محمد أبوموسى، ط: مكتبة وهبة– القاهرة، الطبعة: السابعة ١٤٢٧هـ– ٢٠٠٦م.

(١١) دلالات التراكيب، مكتبة وهبة الطبعة الرابعة، ١٤٢٩هـ_ ٢٠٠٨م.

(١٢) سنن الترمذي، ت: الشيخ أحمد شاكر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥م.

(١٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: ٤٤٩هـ)، دار النشر: مكتبة الرشد – السعودية، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

(١٤) صحيح ابن خزيمة، ت: محمد مصطفى الأعظمي، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت.

(١٥) صحيح البخاري، دار الشعب – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م.

(١٦) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسن عبيد الله بن محمد عبد السلام بن خان محمد بن أمان الله بن حسام الدين الرحماني المباركفوري، إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء – الجامعة السلفية – بنارس الهند، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٤م.

(١٧) مستدرك الحاكم، ت: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ – ١٩٩٠م.

(١٨) مسند أحمد، ت: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

(١٩) مسند البزار، مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة.

(٢٠) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام (المتوفى: ٧٦١هـ)، ت: مازن المبارك / محمد علي حمد الله، دار الفكر – دمشق، الطبعة: السادسة، ١٩٨٥م.

(٢١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، بدون تاريخ.

(٢٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب، (المتوفى: ٧٥١هـ)، ص٢٦، دار الحديث –القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٩٩٩م.